Al. Anbar University Journal for Humanities
مجلة جامعة الانبار للعلوم الانسانية
P. ISSN: 1995-8463 E.ISSN: 2706-6673
Volume 20- Issue 1- March 2023 المجلد ٢٠- العدد ١ – اذار ٢٠٢٣

Harafish and Zaar in the era of the Mamluk sultans 648-923 AH / 1250-1517 AD

Assist. Prof. Dr. Elaf Asim Mustafa
Al. Mustanseriya University- College of Basic Education

Email:
alofa2009.edbs@uomustansiriyah.edu.iq

ORCID: 0000-0000-0000-0000

10.37653/juah.2023.178162

Submitted: 15/04/2022
Accepted: 20/06/2022
Published: 30/03/2023

Keywords:
Harafish
Zaar
Mamluk

Abstract:
In this study, we highlight two social groups that appeared in the era of the Mamluks who ruled Egypt and Bilad al-Sham, namely the class of Harafish that appeared in Egypt, and al-Zu`r in Damascus.
We try to understand the objective reasons that led to their appearance in terms of their presence and their characteristics that distinguish them from the rest of society, their influence in the Egyptian and Damascene society, as well as the actions they have undertaken that were considered alien to the customs and traditions of Islamic societies, as well as the position of the Mamluk authority on these two sects and the reasons That led to the agreement of the authorities in suppressing them until their affairs became more difficult and it became difficult to curb them, especially after the voices came out to put an end to the problems they created in their areas of presence

©Authors, 2023, College of Education for Humanities University of Anbar. This is an open-access article under the CC BY 4.0 license (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

الحرافيش والزعر في عصر سلاطين المماليك
٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م

أ.م.د. ايلاف عاصم مصطفى
الجامعة المستنصرية- كلية التربية السياسية

الملخص:

في هذه الدراسة نسلط الضوء على فئتين اجتماعيتين ظهرتا في عصر المماليك الذين حكموا مصر وبلاد الشام، وهما فئة الحرافيش التي ظهرت في مصر، والزعر في دمشق.

ونحاول ان نفهم في هذه الدراسة الاسباب الموضوعية التي أدت الى ظهورهم من حيث اماكن تواجدهم وصفاتهم التي تميزو بها عن باقي فئات المجتمع، وتأثيرهم في المجتمع المصري والشامي فضلاً عن الاعمال التي قاموا بها والتي كانت تعتبر غريبة عن عادات وتقاليد المجتمعات الاسلامية وكذلك موقف سلطة المماليك من هاتين الطائفتين والاسباب التي أدت الى تراخي السلطة في قمعهم حتى استفحل امرهم وصار من الصعب كبح جماحهم، خصوصاً بعد ان تعالت الاصوات بوضع حد للمشاكل التي اوجدوها في مناطق تواجدهم

الكلمات المفتاحية: الحرافيش، الزعر، المماليك

المقدمة

شهدت المجتمعات الاسلامية بروز فئات اجتماعية تتسم بالفوضى وعدم الانضباط والتمرد على السلطة والمجتمع، كنتيجة طبيعية، للعنصرية والظلم والتسلط والاستحواذ على السلطة دون وجه حق، وقد كان ينظر لتلك الفئات بنضرة دونية دون الاخذ بنظر الاعتبار الاسباب الاقتصادية والاجتماعية التي ادت بهؤلاء لسلك طريق النهب والسلب والجريمة.

لقد ظهرت في مصر عصر السلاطين المماليك فئة الحرافيش وهم اصحاب المهن البسيطة والعاطلين عن العمل والمتسولين الذين اجبرتهم ظروف الحياة الى سلك طريق النهب والسلب والتمرد على كل شيء حتى اصبحوا فئة كبيرة لايمكن السيطرة عليها لاسيما بعد ان أنظموا في جماعات واصبح لهم رئيس او زعيم، وحاولوا اخذ حقوقهم بأيديهم وبشتى الوسائل.

إما في دمشق فقد ظهرت فئة الزعر وهي لا تختلف كثيراً عن الحرافيش من حيث الجوهر ولكنهم يشتركون بنفس الاسباب والعوامل التي دفعتهم الى سلوك طريق الجريمة، فضلاً عن السلطة التى أستغلتهم في تصفية خصومهم السياسيين وقربتهم في بادئ الامر الى

ان قويت شوكتهم واصبحوا يشكلون خطراً على الوجود المملوكي في مصر وبلاد الشام، لذلك اتبع المماليك اسلوباً واحداً في القضاء على الحرافيش في مصر والزعر في دمشق واستخدمت معهم اقسى العقوبات.

ومع ان الحرافيش والزعر كانوا يدركون ان المماليك هم غرباء وليسوا من سكان البلاد وان الصدفة وحدها هي من دفعتهم الى سدة الحكم، لذلك عارضوا الوجود المملوكي ولكن باسلوبهم الخاص. الذي لم يكن مقبولاً من السواد الاعظم من الناس الذين اعتبروهم مجرد لصوص وقطاع طرق بسبب ما يقوم به البعض منهم جرائم واعمال منافية للاخلاق ولاتتماشى مع التقاليد الاسلامية

الحرافيش وجذورهم التاريخية

الحرافيش، مفردها حرفوش وتعني الفلاضة والفضاضة وقله التهذيب والخروج عن اللائق(ابن منظور، ١٩٩٤، ١٣٣) وذكر (الاصمعي، د.ت، ٤٥١) ان الحرفش هي الحية لانها تحرفش اذا ارادت الوثب وكذلك الانسان اذا تهيأ للشر، وفي المصادر المعاصرة استخدم هذا المصطلح للدلالة على الطبقات المتدنية في المجتمع وهم العوام، كما استخدم هذا اللفظ للاشارة الى اهل الظلم والفساد، وقد اطلق عليهم المقريزي(اوباش العوام)(المقريزي، ١٩٥٨، ٣/ ٨٧٥).

والحرافيش في مصر طائفة كبيرة من الكسبة والعاطلين والمتسولين أفرزتهم الاوضاع الاجتماعية في عهد سلاطين المماليك، كما افرزت الزعر في بلاد الشام وهي تشبه الى حدٍ ما طبقة العيارين والشطار في بغداد(الحلبي، ١٩٨٢، ٩٨).

تميز الحرافيش عن باقي فئات المجتمع في مصر بملابسهم البالية والمرقعة بسبب تدني حالتهم المعيشية وقدرتهم على النصب والسلب وخطف كل ما تصل اليه ايديهم(زيتون، ٢٠٠٩، ١١٠).

وقد وصف احد الرحالة الاوربين الذي زار القاهرة في عصر المماليك حالة هؤلاء الحرافيش (ان القاهرة وحدها بها ما يقرب من مائة الف، بلا مأوى ويفترشون الطرقات وبلا ملابس سوى اسمال بالية)(Fabri, 1975, 251).

وقد اضاف (السخاوي، د.ت، ٢١١) اصحاب بعض المهن الوظيفية على طبقة الحرافيش كطبقة المشاعلية الذين يحملون المشاعل في المواكب والاحتفالات كونهم يعملون في كنس الطرقات وينفذون احكام الاعدام التي تصدر من القضاء.

لقد أدمنت الغالبية العظمى من الحرافيش على تعاطي الحشيش، بسبب ظروفهم الاجتماعية القاسية، والبطالة، وشحة الرزق، في حين لم يتعاطوا شرب الخمور، الا في حالات نادرة، ويرجع السبب في ذلك الى ان ظاهرة تعاطي الحشيش كانت متفشية في المجتمع المصري وفي مختلف العناصر السكانية، كالعلماء والقضاة والامراء، ووصل القضاة الى حد الافتاء باباحة تعاطيها، لعدم وجود نص او فتوى تحرم تعاطي الحشيش، فضلاً عن نضرة المجتمع الى متعاطي الحشيش اقل وطئة من متعاطي الخمور، اضافة الى رخص الحشيش قياساً بثمن الخمور(امين، د.ت، ٧٣).

لقد عاش الحرافيش في اغلب احياء القاهرة التي تطفي عليها صفة الفقر والعوز فضلاً عن الجيزة والفسطاط وبقية المدن المصرية، وكانت لهم مشيخة خاصة بهم ياتمرون بامرها ولا يحيدون عن رأيها، وهذا ما جعل الامراء والقادة يستغلون هذه الفئة في تصفية الحسابات فيما بينهم عن طريق دفع الاموال لهم، واستخدامهم كقتلة مأجورين(المنوفي، د.ت، ١٩٧).

ومن اجل السيطرة عليهم وضمان عدم افتعال المشاكل فيما بينهم بين فترة واخرى حاول المماليك ارضاءهم كلما سنحت الفرصة ولاسيما في اوقات المجاعات، حيث كانوا يوزعون عليهم الكسوة والمأكل، ويذكر ابن اياس في احداث سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م (اشتد الغلاء في مصر وشح نهر النيل حتى عدمت الاقوات، فأمر السلطان الظاهر بيبرس بجمع الحرافيش كلهم وكانوا نحو الفي حرفوش، ففرقهم على الامراء واخذ لنفسه منهم جانباً واضاف لولده السعيد جانباً واضاف الى الامير بيلبك نائب السلطنة منهم جانباً ورسم لكل واحد منهم في كل يوم برطل من الخبز ونصف رطل من اللحم وامرهم الا يسألوا بعد ذلك احد من الناس)(ابن اياس، ٢٠٠٨، ٥٤١). رغم ذلك لم تأت تلك الرعاية اوكلها، بل عاد الحرافيش الى سيرتهم السابقة فقد اعلنوا العصيان سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٦م، وثاروا في احياء القاهرة ونهبوا وسلبوا الحوانيت والاسواق، وراحوا يكسرون كل ما يقع في أيديهم وهددوا المحتسب بالقتل (حتى انقطع عن الناس اياماً في بيته لايجرؤ على مغادرة منزله خوفاً على نفسه منهم)(ابن الفرات، ١٩٣٦، ٢٣٧-٢٣٨).

ويعود السبب في تلك الاحداث الى ان الحرافيش قد ضاقوا ذرعاً من سياسة السلاطين وغرقهم بالترف والبذخ في حين ان الغالبية العظمى من الناس تعاني من فقر مدقع فضلاً عن ذلك كان الحرافيش يدركون ان المماليك غرباء عن البلاد وليسوا من اهلها، وانهم اولى

ببلادهم من غيرهم(عبد البصير، ١٩٦١، ٤٤) وقد استمرت تلك الاعمال زهاء سبعة ايام من الفوضى(عبد البصير، ١٩٦١، ٤٥) وفي شهر صفر من عام ٨٢٠هـ/١٤١٦م، نشب قتال بين الحرافيش في القاهرة، داخل احد الاحياء الفقيرة والسبب يعود الى ان احد التجار سرق منه مبلغاً مالياً وقد استعان ذلك التاجر باحد زعماء الحرافيش من اجل استرداد ماله، فهجم ذلك الزعيم على الشخص المتهم بالسرقة ودارت معركة كبيرة جرح على اثرها اعداد كبيرة دون ان تتدخل السلطة(عبد البصير، ١٩٦١، ٤٥).

وبعد توسط بعض الامراء وقادة الجند، عادت الحياة على طبيعتها(عبد البصير، ١٩٦١، ٤٦). ولكن سرعان ما اندلعت ثورة في دمياط عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م بسبب ظلم والي دمياط وفساده وقد اقتحم الحرافيش داره وحلقوا لحيته واركبوه على جمل بالمقلوب نكاية به وراحوا يدورون به في ازقة المدينة، ثم قتلوه(عاشور، ١٩٧٦، ٤٦-٤٧).

لقد كان ذلك الحادث أيذاناً ببداية خروج الامور عن نصابها ولم يعد المماليك قادرين على احتواء النقمة الشعبية، واخذوا يفكرون في ارضاءهم بشتى الطرق، لولا تصرفات البعض من العوام التي نسفت مخططاتهم، حيث عاد الاقتتال بين الحرافيش انفسهم وشكلوا ما يشبه العصابات التي تتقاتل لاسباب شتى حيث ذكر ابن أياس انه من سنة(٨٩٢هـ/١٤٨٧م) (اقتتلت طائفتان من الحرافيش ووقع بينهم امور شدائد يطول شرحها، وصار يقتل بعضهم بعضاً جهاراً حتى اعيا الوالي امرهم)(ابن اياس، ٢٠٠٨، ٥٤١).

يفسر بعض المؤرخين ان ذلك يعود الى مكائد الامراء انفسهم للقضاء على الحرافيش عن طريق تشكيل مجموعات مواليه لهم تتولى مهمة الاقتتال مع المجموعات الاخرى، في حين يوضح البعض ان المماليك سمحو لرؤساء الحرافيش باستيفاء مبالغ من التجار تشبه(الاتاوة) تؤخذ بداية كل شهر عربي وربما كان الاختلاف على تلك الاموال هي السبب في ذلك الاقتتال(اشتور، د.ت، ٩٥) (غلاب، ١٩٦٧، ١٥٥) ومهما يكن من أمر فأن ذلك ان دل على شيء فأنه يدل بلا ادنى شك عن عجز المماليك في مواجهة هؤلاء الحرافيش او الاقتراب اليهم ومحاولة ارضاءهم بأية وسيلة كانت(عاشور، ١٩٧٦، ٤٩).

وفي اواخر العصر المملوكي حدث تطور على الحرافيش، حيث كانوا ينتخبون واحداً منهم ليكون كبيرهم او سيدهم له صفات خاصة يتمتع بها، فكان لكل حي او حارة كبيرة زعيماً

للحرافيش يتولى شؤون امورهم ويدفع لهم الارزاق التي كانت تستوفى من التجار المسلمين واليهود والنصارى❁.

وحاول هؤلاء الزعماء اضفاء صفة الشجاعة والنخوة والمروءة لاعمالهم، حيث كان يتغنى بها الشعراء في مجالسهم الخاصة ويكرمونهم غاية الكرم(الحسين، ١٩٨٧، ٨٦).

وقد سبب ذلك صراعاً بين الحرافيش على الزعامة فكان كل زعيم يحاول ارضاء رعيته بالانفاق عليهم من الاموال التي تجبى من الاتاوات او تنهب من الناس(بدر، ١٩٨١، ٢١٧). وعلى الرغم من كل ذلك بقيت حالة السواد الاعظم من الحرافيش متدنية بسبب الفقر والجوع والامراض التي كانت تفتك بالمجتمع المصري(الامام، ١٩٥٩، ١٢٣).

ذلك ما دفعهم الى حرق ونهب الخانات والدكاكين والاسواق في فترة اضطراب الاوضاع العامة في القاهرة بعد دخول العثمانين الى مشارف القاهرة، وهروب اعداد كبيرة من الشراكسة الى خارج القاهرة، الامر الذي اتاح للحرافيش فرصة نهب وسلب قصور الامراء والحاشية، وبقيت أعمال النهب تلك لعدة ايام حتى دخول السلطان سليم الاول ١٥١٢-١٥٢٠م(نظمي، د.ت، ٦٥).

الزعر في دمشق :

ومثلما كان الحرافيش في مصر، كان هناك الزعر في دمشق والزعر يزعر زعراً هو فعل، والزعر هو الشعر او الريش، فنقول زعر الولد اي ساءت اخلاقة وزعر الرجل اي قل خيره، وهي صفة مشبهه تدل على الشطار والعيارون(المقريزي، د.ت، ٤٥). والزعر جمع زاعر، (هو اللص والمحتال والعيار والحرفوش المتشرد)(المقريزي، د.ت، ٦٦-٦٧). وتعتبر فئة الزعر من فئات المجتمع الشامي في عصر المماليك، وكانوا يعيشون في احياء دمشق والميدان والصالحية وبردى(عبد الغفور، ١٩٧١، ٦٦-٦٧). ويعود السبب في ظهور هذه الطبقة الى الاوضاع الاقتصادية المتردية التي ضربت مفاصل الدولة المملوكية والتي ادت بطبيعة الحال الى ظهور البطالة وتدني أجور العمل(الحلبي، ١٩٨٢، ١٠٢).

❁ لابد ان نشير هنا الى ان المبالغ التي كانت تجبى من هؤلاء بالقوة تختلف بين فئة واخرى فعلى سبيل المثال كانت تجبي من التاجر الذمي يهودياً كان او نصرانياً ضعف ما يستوفى من التجار المسلمين. ينظر (بدر، ١٩٨١، ٢٢٧).

وقد انحدر البعض من الزعر من القرى والضياع البعيدة عن المدن وقد اجبرتهم ظروف الحياة الى ترك الريف والتوجه الى المدينة من اجل العمل، فلم يجدوا ما كان يطمحون فيه من حياة كريمة فانخرطوا في هذا السلك(ابو المحاسن، ١٩٨٤، ١١/ ٢٨٦).

تميز الزعر في بلاد الشام عن الحرافيش في مصر، في انهم اضافوا صفات البطولة والشجاعة في اعمالهم لكنهم لم يختلفوا كثيراً من حيث الجوهر، وكلتا الطائفتين كان همها الوحيد السرقة وقطع الطريق والاستحواذ على اموال وممتلكات الاخرين بدون وجه حق(الناصر، ١٩٧١، ٧٥).

ومع مرور الوقت انخرط مع الزعر فئة اخرى هي الحرافيش(الذين اتخذوا سؤال الناس مهنة فكانوا يسألون الناس دون حاجه، حيث يجلسون على ابواب المساجد ويطلبون المساعدة)(السبكي، د.ت، ١٤٧) وقد هجرو مهنتهم القديمة واستغلوا قيام الفتن وانعدام الامن للقيام باعمال السلب والنهب والسرقة للبيوت والحوانيت والاسواق(الناصر، ١٩٧١، ٧٩).

لقد نشط الزعر بشكل ملحوظ في عصر الدولة المملوكة الثانية(البرجيه)، وبالتحديد في مدينة دمشق، فكان لكل جماعة من الزعر كبير او شيخ يحظى باحترامهم ولا يحيدون عن طاعته(برغوث، ١٩٧٤، ٦٣).

تميز الزعر عن باقي فئات المجتمع الدمشقي بملابسهم وازيائهم، حيث كانوا يلقون على اكتافهم رداءاً او وشاح، ويحلقون شعر رأسهم وحملوا الخناجر، والسيوف في بعض الاحيان، فضلاً عن السراويل الفضفاضة التي كانت السمة البارزة فيهم(سعدو، ١٩٨٧، ٩٥).

ومن اجل ارهاب الاخرين وبث الذعر في نفوس العامة، اتخذوا لانفسهم اسماءاً والقاب تدل على الهيبة والخوف مثل ابي طاقية والجاموس والغزال والسمكري وابن العجمي(خليل، ١٩٩٩، ٧٣). وكان هؤلاء من اراذل القوم ويتصفون بصفات سيئة لانهم (كانوا ياخذون اموال الناس بالتخويف ويمارسون الزنا واللواط ولا يغتسلون ولا يتطهرون)(النجار، ١٩٨١، ٥٥).

كما وصفهم ابن طولون(وهؤلاء الذين يقال لهم الزعر، قد كثروا وكثر فسادهم ويقال انهم قتلوا قتيلاً عند حمام الجوخي وداروا في اسواق المدينة فلا يخالفهم احد وهم اولاد الحموي وشخص اخر طلب من شخص شيئاً بسوق النحاسين داخل البلد فلم يعطه فضربه وجرحه)(ابن طولون، ١٩٦٢، ١١١).

لقد شكل الزعر حاله من الخوف وعدم الاستقرار في المجتمع الدمشقي، لما يقومون

به من اعمال منافية للاخلاق وعادات اهل الشام، مما دفع اهالي دمشق للاحتجاج لدى القاضي عدة مرات على ما يقوم به الزعر من ارهاب للسكان، لاسيما بعد المعارك التي حدثت بين الزعر انفسهم عام ٩٠٣هـ ١٤٩٧م، والذي دفع ابن طوق ليقول عنهم(وهؤلاء الذين يقال لهم الزعر، قد كثروا وكثر فسادهم)(ابن طوق، ٢٠٠٢، ٣/ ٤٣٧) (الحجي، ١٩٨٤، ١٥٥).

كان الزعر يتقاتلون فيما بينهم لاتفه الاسباب، من اجل استعراض قوتهم من جهة واخافة الناس من جهة اخرى ففي عام ٨٨٥هـ/١٤٨٠م، وقع قتال عنيف بين زعر القبيات والميدان، وقد وقع اعداد كبير من القتلى والجرحى، ولم يتوقف القتال الا بتدخل الحاجب(النابلسي، ١٩٧٦، ٢٤٥).

وتكرر ذلك عام ١٤٨٥، حيث اغلقت الاسواق وتعطلت الحياة وافرغت الحواري من ساكنيها، وكانوا يقنعون الناس البسطاء ان ذلك بسبب ظلم الحكام(الحمصي، ١٩٩٩، ٢٠٣)، وتكررت حوادث القتال مرة اخرى عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م، بين زعر الشاغور والميدان، حيث نشب صراعهم بالقرب من حي الباب الصغير ولم يتوقف القتال الا بعد ان تدخل العلماء واصلحوا بينهم(الحميري، ١٩٨٠، ١٩٩). لكن ذلك لم ينهي المعارك بين الزعر، فقد تجدد القتال مرة اخرى بين زعر الميدان واهل الشاغور مطلع رجب عام٩٠٣هـ/١٤٩٧م، واستخدموا كافة الاسلحة وقد وقع نتيجة تلك المعركة اعداد لايستهان بها وجرح خلق كثير(النجار، ١٩٨١، ٦١) (الناصر، ١٩٧١، ٨٨).

وتجددت تلك الحوادث عام ٩٠٦هـ/١٥٠٠م، حيث يذكر ابن طوق (وقع بين مردة الانس الذين يقال لهم في هذا الزمان الزعر، جوار الشيخ ارسلان خلاف وانه جرح وقتل منهم ناس ومن الذين قبض عليهم من المقاتلين ابن بق بن القفاعي وكان جريحاً في القلعة)(ابن طوق، ٢٠٠٢، ٩١٠).

ان تلك الحوادث ان دلت على شيء فانها تدل على ضعف السلطة المملوكة وعجزها عن مواجهة تلك المجاميع التي عاثت بالارض فساداً وعطلت حركة البيع والشراء وكافة جوانب الحياة فضلاً عن الاستهانة بارواح الناس الامنين(النابلسي، ١٩٧٦، ٢٤٨).

موقف السلطة المملوكية في دمشق من الزعر

ولكونهم قوة منظمة لايستهان بها، حاول بعض الامراء الاستعانة بهم لتصفية الخصوم ففي عام ٧٩١هـ/١٣٩٨م حدث خلاف بين الامير منطاش والامير يلبغا، مما دفع

الامير منطاش ان يستعين بالزعر فيذكر ابن اياس(ان الامير منطاش حضر ومعه عساكر الشام والسواد الاعظم من زعر دمشق)(ابن اياس، ٢٠٠٨، ٣٥٧).

فضلاً عن ذلك فقد انفق نائب القلعة اموالاً كثيرة من اجل كسب الزعر الى صفه في خلافه مع الحاجب، مما دفع زعر الشاغور يلقون القبض على جماعة الحاجب ويقتلونهم عام ٩٠٣هـ/١٤٩٧م (Tem, 1988. 95).

كما دخل زعر الصالحية في خدمة علي بن شرباش سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٩م، الذي كان يطمح بنيابة الشام(عادل، ١٩٦١، ٦٧). واتخذ بعض الامراء من الزعر اتباع خصوصين لهم، كما فعل الدويدار الثاني للنائب جان بلاط سنة ٩٠٥هأ/ ١٤٩٩م(بدران، ١٩٨٥، ٢٨٤).

وشارك الزعر في الاحتفالات الرسمية، حيث كانوا يتقدمون الناس رافعين الاعلام والسيوف عند تولي احد الولاة منصبه الجديد، على الرغم من اعتراض الاهالي على ذلك لكن السلطة المملوكية على ما يبدو كان يروق لها ذلك(القاضي، ١٩٦٦، ١٤٥). لاسيما وأن بعض النواب في دمشق اعتمد على الزعر في جباية الضرائب واستحصالها من التجار (Tem, 1988. 95).

لقد سبب ذلك عدائاً كبيراً للزعر من اهالي دمشق الذين كانوا يدركون الاعمال اللاقانونية والاخلاقية التي كان يرتكبها الزعر فاضيفت اليهم وصمة عار جديدة من خلال جباية الضرائب لاسيما بعد استخدامهم للعنف ضد الناس مما ولد شرخاً كبيراً بين الطرفين(القاضي، ١٩٦٦، ١٤٩-١٥٠).

حاولت السلطة ومنذ بداية ظهور الزعر، الاستفادة منهم في ضبط الامن والاستقرار في دمشق، ولكن مع تماديهم في اعمالهم الاجرامية، أخذت تخشى من سطوه نفوذهم فاتخذت بحقهم اقسى العقوبات بغية ردعهم، كما حدث عام ٨٩٩هـ/١٤٩٣م، عندما أمر نائب الشام قانصوه اليحياوي باعدام ابن الذهبي كبير زعران الصالحية (ابن طوق، ٢٠٠٢، ١/ ٢٥٦).

وفي عام ٩٠٦هـ/١٥٠٠م، امر دوادار النائب بشنق احد الزعر لانه اعترف بقتل شخصاً عند حاره الخاتونية (ابن طولون، ١٩٨٤، ١٦٨).

ومن اجل بسط الامن والنظام واعادة هيبة الدولة، هاجم المماليك حي الشاغور، من اجل القبض على الزعر هناك، وقاموا باحراق الحي باكمله عام ٩٠٨هـ/١٥٠٢م (ابن طوق، ٢٠٠٢، ٢٥٨) (محمود، ١٩٨١، ١٧٥).

وفي عام ٩٠٩هـ/١٥٠٣م، اصدر نائب دمشق قانصوه البرجي، امراً بابطال الزعاره واعتبرها جريمة يحاسب عليها مرتكبها وان لايحمل احد سلاحاً او يلف على راسه ولا يقلب ثيابه(محمود، ١٩٨١، ١٧٨). وفي فترة نيابة سيباي عام ٩١٨هـ/١٥١٢م، ألغى مشايخ الحارات واعتبرها باطلة(ابن طولون، ١٩٦٢، ٢٣٦) (الغزي، ١٩٩٧، ٢/ ١٧٢)، ولكن مع كل تلك الاجراءات لم تستطع السلطة السيطرة على الزعر او الحد من انشطتهم المشبوهة(محمود، ١٩٨١، ١٧٧)، لانهم كانوا يشكلون قوة لا يستهان بها في دمشق، وكانت تضاهي قوة السلطة المملوكية في كثير من الاحيان وبذلك كان النواب يحرصون على عدم مواجهتهم او التقرب عليهم، ولكن في الوقت نفسه، كان الزعر متفرقين ولم يتمكنوا من الاتحاد فيما بينهم، وانشغلوا بالمعارك التي كانت تدور في حارات الشام لذلك بقيت قوة متفرقة وغير موحدة (لابيدوس، ١٩٨٧، ١٨٨).

ومع ظهور بوادر انهيار الدولة المملوكية وضعفها أستغل الزعر انشغال المماليك بقتال العثمانين وراحوا ينهبون قصور الامراء واعيان الدولة، وقد وصل الأمر الى قتل اعداد من الشراكسة واعوانهم، ورحبوا في الوقت نفسه بالعثمانين حيث شكلوا وفوداً وزارو القادة العثمانين في قلعة دمشق (محمود، ١٩٩١، ٩٣).

الخاتمة

مما تقدم يتبين أن الحرافيش والزعر هم نتاج اجتماعي واحد، دفعتهم ظروف الحياة والفقر الى الظهور كفئة اجتماعية كبيرة ، مقهورة ، خارجة عن سيطرة الدولة، على الرغم من أن بعض السلاطين حاولوا احتواء هاتين الفئتين ، وقدموا لهم المساعدة، ولكن ذلك لم يكن بدافع العطف والشفقة والاحسان ، ولكن من اجل السيطرة عليهم واستخدامهم كقوة ضاربة لتصفية خصومهم من الامراء وكل من يخرج عن طاعتهم .

ومع ذلك اتبع المماليك نفس السياسة مع الحرافيش في مصر والزعر في دمشق تلك السياسة التي تقوم على مبدأ فرق تسد من اجل كبح جماحهم وسهولة السيطرة عليهم ولاسيما بعد أن اصبحوا قوة لايستهان بها.

لقد وقع الحرافيش والزعر في نفس الفخ الذي نصبه لهم السلاطين المماليك عندما عهدوا اليهم مهمة جباية الضرائب الامر الذي ادى الى سخط الناس على هاتين الفئتين وكرست الحقد والكراهية ضدهم، مما دفع الاهالي الى الاستعانة بالدولة من اجل القضاء عليهم ووضع حد لأعمالهم.

اضف الى ذلك فان ثمة تشابه بين فئة الحرافيش والزعر من حيث الملابس والصفات وحلاقة الشعر وطرق واساليب القتال ولكنهم أختلفوا في بعض التفصيلات واهمها الجرائم التي ارتكبتها هاتين الفئتين . فالزعر كانوا اكثر قساوة من الحرافيش في قتالهم ويعود ذلك الى طبيعة المجتمع الدمشقي قياساً بالمجتمع المصري.

المصادر والمراجع

- ابن منظور، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم(ت ٧١١هـ/١٣١١م) ١٩٩٤، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣.
- الاصمعي، عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي(ت ٢١٦هـ/٨٢٨م)، اشتقاق الاسماء حققه وعلق على حواشيه، صلاح الدين الهادي، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- المقريزي، احمد بن علي(ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، ١٩٥٨، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة.
- ـ، اغاثة الامة بكشف الغمة، تحقيق مديحه الشرقاوي، القاهرة، ط٢، د.ت.
- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م)، التبر المسبوك في ذيل السلوك، حققه وعلق على حواشيه عبد الاعلى داود، مطبعة بولاق.
- ابن اياس، محمد بن احمد (ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م)، ٢٠٠٨، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ست اجزاء، دار الكتب، القاهرة، ط٢،.
- ابن الفرات، محمد بن علي(ت، ٨٠٧هـ/١٤٠٥م)، ١٩٣٦، تاريخ ابن الفرات، تحقيق غالي عبد الرحمن، بيروت.
- ابو المحاسن، جمال الدين بن يوسف بن تغري بردي(ت٨٧٤م)، ١٩٨٤، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة تحقيق جمال محرز وفهيم شلنون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب(ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م)، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، القاهرة.
- ابن طولون، محمد الصالحي الدمشقي (ت،٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، ١٩٦٢، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تاريخ مصر والشام، جزئين، تحقيق محمد مصطفى، دار احياء الكتب العربية، القاهرة،.
- • ابن طولون ، ١٩٨٤، اعلام الورى بمن ولي نائباً من الاتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد احمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ط٢.
- ابن طوق، شهاب الدين احمد بن محمد (ت،٩١٥هـ/١٥٠٩م)، ، ٢٠٠٢، التعليق، تحقيق جعفر المهاجر، بيروت، ط٢.
- الحمصي، احمد بن محمد بن عمر(ت، ٩٣٤هـ/١٥٢٧م) ، ١٩٩٩، حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والاقران، ٣ اجزاء، تحقيق عمر تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١.

- الغزي، نجم الدين محمد بن محمد (ت١٠٦١هـ/ ١٦٥١م) ، ١٩٩٧، الكواكب السائره باعيان المائه العاشرة، ثلاث اجزاء، تحقيق خليل المنصوري، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الحميري، محمد بن عبد الله(ت٩٠٠هـ/١٤٩٦م) ، ١٩٨٠، الروض المعطار في خير الاقطار، تحقيق احسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط٢.
- الحلبي، اكرم حسن، ١٩٨٢، دمشق بين عصر المماليك والعثمانين ١٥٠٠-١٥٢٠، دراسة تاريخية اجتماعية، دمشق، ط١.
- امين، عبد العزيز، ٢٠٠٩، المجتمع المصري في العصر المملوكي، ط٢، دار المعارف، القاهرة.
- زيتون، عادل، تاريخ المماليك، اصدارات جامعة دمشق.
- المنوفى، عز الدين خليل، د. ت ، الاحوال العامة في مصر في عصر السلاطين المماليك، د. م.
- عبد البصير، بسيوني، ١٩٦١، الحياة الاجتماعية في مصر في عهد المماليك، دار الحرف، بيروت.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح، ١٩٧٦، العصر المملوكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢.
- غلاب، منى محمد، ١٩٦٧، الحركات الاجتماعية في مصر عهد السلاطين المماليك، القاهرة، ط٢.
- الحسين، قصي، ١٩٨٧، الادب العربي في العصر المملوكي والعثماني، المكتبة المصرية، القاهرة.
- عبد الغفور، ليلى، ١٩٧١، الحركات الاجتماعية في بلاد الشام، دار القلم، بيروت.
- الناصر، محمد علي، ١٩٧١، دمشق في العهد المملوكي، دمشق.
- برغوث، عبد الودود، ١٩٧٤، جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق، ط٢، عمان.
- سعدو، محمد علي، ١٩٨٧، دمشق بين الماضي والحاضر، دار النبأ، دمشق.
- خليل، انطوان، ١٩٩٩، دمشق في عهد الدولة المملوكية، بيروت.
- النجار، محمد رجب، ١٩٨١، حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي، سلسلة عالم المعرفة الكويت.
- الحجي، حياة ناصر، ١٩٨٤، احوال العامة في حكم المماليك ٦٧٨-٧٨٤هـ/١٢٧٩-١٣٨٢م، دار الفلاح، الكويت، ط١.
- النابلسي، عبد الله عطا، ١٩٧٦، تاريخ بلاد الشام منذ الفتح الاسلامي حتى العصر العثماني، مؤسسة المعرفة، لندن.
- عادل، عبد الله، ١٩٦١، دراسات في المجتمع الشامي، ط٢، دمشق.
- بدران، عبد القادر، ١٩٨٥، منادمة الاطلال ومسامره الخيال، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الاسلامي، بيروت.
- القاضي، اسعد محمد، ١٩٦٦، تاريخ نيابة دمشق في العصر المملوكي، دار الامم، بيروت.
- محمود، محمد السيد، ١٩٨١، الحركات الاجتماعية في المجتمعات الاسلامية دار النهضة، القاهرة.
- محمود، شاكر ، ١٩٩١ ، التاريخ الاسلامي ، العهد المملوكي ٦٩٦ -٩٢٣هـ ، المكتب الاسلامي ،

بيروت ، ط٢.

- نظمي، خليل بك، د. ت ، الفتح العثماني لمصر، د. م.

المراجع المعربة

- اشتور، أ.ت، د. ت ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الاوسط في العصور الوسطى، دار قتيبة، القاهرة،ط١.
- لابيدوس، إيرا، ١٩٨٧، مدن بلاد الشام في العصر المملوكي، ترجمة علي ماضي دار الاهلية للنشر، بيروت.

المراجع غير المعربة

- Fabri, Felix, 1975, voyage en Egypt, Paris.
- Tem, Tample, 1988, History of Damascus, London.

البحوث والدراسات

- بدر، عبد الخالق، ١٩٨١، المجتمع المصري، اواخر العهد المملوكي، مجلة العروة العدد٢٤، فاس.
- الامام، علي عبد الطاهر، ١٩٥٩، الامراض والاوبئة في المجتمعات العربية، مجلة الثقافة، العدد ١٨، بغداد.

English Reference

- Ibn Manzoor, Abu al-Fadl Jamal al-Din Muhammad ibn Makram (d. 711 AH / 1311 AD) 1994, Lisan al-Arab, Dar Sader, Beirut, 3rd edition.
- Al-Asma'i, Abd al-Malik bin Qareeb bin Abd al-Malik bin Ali (d. 216 AH / 828 CE), the derivation of names, verified it and commented on its footnotes, Salah al-Din al-Hadi, Al-Khanji Library, Cairo.
- Al-Maqrizi, Ahmed bin Ali (d. 845 AH / 1441 AD), 1958, behavior to know the states of kings, investigation by Muhammad Mustafa Ziyadah, Cairo.
- ،____Relief of the Nation by Revealing Grief, investigation by Madiha Al-Sharqawi, Cairo, 2nd edition,.
- Al-Sakhawi, Muhammad bin Abd al-Rahman (d. 902 AH / 1497 AD), Al-Tabr al-Masbouk fi Dhil al-Suluk, verified and commented on its footnotes by Abd al-Ala Daoud, Bulaq Press.
- Ibn Ayas, Muhammad bin Ahmad (d. 930 AH / 1524 AD), 2008, Bada'i al-Zuhur fi Waqa'i al-Dahur, investigation by Muhammad Mustafa, six parts, Dar al-Kutub, Cairo, 2nd Edition.
- Ibn al-Furat, Muhammad bin Ali (d. 807 AH / 1405 AD), 1936, The History of Ibn al-Furat, investigation by Ghali Abd al-Rahman, Beirut.
- Abu al-Mahasen, Jamal al-Din ibn Yusuf ibn Taghri Bardi (d. 874 AD), 1984, The Brilliant Stars in the Kings of Egypt and Cairo, investigation by Jamal Mahrez and Fahim Shalenoun, the Egyptian General Book Organization, Cairo.
- Al-Sobki, Taj al-Din Abd al-Wahhab (d. 771 AH / 1369 CE), Resurrecting Blessings and Exterminator of Stars, investigation by Muhammad Ali al-Najjar, Dar al-Kitab al-Arabi, Cairo.

- Ibn Tulun, Muhammad al-Salhi al-Dimashqi (d. 953 AH / 1546 AD), 1962, Fruits of the Khalan fi Accidents of Time, History of Egypt and the Levant, two parts, investigation by Muhammad Mustafa, Arab Book Revival House, Cairo.
- •Ibn Tulun, 1984, Al-Wari flags, who was appointed deputy of the Turks in Greater Damascus, Damascus, investigated by Muhammad Ahmed Dahman, Dar Al-Fikr, Damascus, 2nd edition.
- Ibn Touq, Shihab al-Din Ahmad ibn Muhammad (d. 915 AH / 1509 CE), 2002, commentary, investigated by Jaafar al-Muhajir, Beirut, 2nd edition.
- Al-Homsi, Ahmed bin Muhammad bin Omar (d., 934 AH / 1527 AD), 1999, Accidents of Time and the Deaths of Sheikhs and Peers, 3 parts, investigated by Omar Tadmuri, Al-Maktaba Al-Asriyyah, Beirut, 1st edition.
- Al-Ghazi, Najm al-Din Muhammad ibn Muhammad (d. 1061 AH / 1651 AD), 1997, Planets Walking in the Tenth Hundred Years, three parts, investigated by Khalil al-Mansouri, Dar al-Kutub al-Ilmiya, Beirut.
- Al-Humairi, Muhammad bin Abdullah (d. 900 AH / 1496 AD), 1980, Al-Rawd Al-Muttar fi Khair Al-Aqtar, investigation by Ihsan Abbas, Nasser Foundation for Culture, Beirut, 2nd Edition.
- Al-Halabi, Akram Hassan, 1982, Damascus between the era of the Mamluks and the Ottomans 1500-1520, a historical and social study, Damascus, 1st edition.
- Amin, Abdel Aziz, 2009, The Egyptian Society in the Mamluk Era, 2nd edition, Dar Al-Maarif, Cairo.
- Zaytoun, Adel, The History of the Mamluks, Damascus University Publications.
- Menoufy, Ezz El-Din Khalil, d. T, the general conditions in Egypt in the era of the Mamluk sultans, d. M.
- Abdel Baseer, Bassiouni, 1961, Social Life in Egypt during the Mamluk Era, Dar Al Harf, Beirut.
- Ashour, Saeed Abdel-Fattah, 1976, The Mamluk Era in Egypt and the Levant, Dar Al-Nahda Al-Arabiya, Cairo, 2nd edition.
- Ghallab, Mona Muhammad, 1967, Social Movements in Egypt, during the reign of the Mamluk Sultans, Cairo, 2nd Edition.
- Al-Hussein, Qusay, 1987, Arabic Literature in the Mamluk and Ottoman Era, The Egyptian Library, Cairo.
- Abdel Ghafour, Laila, 1971, Social Movements in the Levant, Dar Al-Qalam, Beirut.
- Al-Nasser, Muhammad Ali, 1971, Damascus in the Mamluk era, Damascus.
- Barghout, Abdel-Wadoud, 1974, Social Aspects of the History of Damascus, 2nd Edition, Amman.
- Saado, Muhammad Ali, 1987, Damascus between the past and the present, Dar Al-Naba', Damascus.
- Khalil, Antoine, 1999, Damascus in the era of the Mamluk state, Beirut.
- Al-Najjar, Muhammad Ragab, 1981, Tales of Al-Shattar and Al-Ayarien in Arab Heritage, World of Knowledge series, Kuwait.
- Al-Hajji, Hayat Nasser, 1984, General Conditions in the Mamluk Rule 678-784

AH / 1279-1382 AD, Dar Al-Falah, Kuwait, 1st edition.
- Al-Nabulsi, Abdullah Atta, 1976, History of the Levant from the Islamic Conquest until the Ottoman Era, Knowledge Foundation, London.
- Adel, Abdullah, 1961, Studies in Levantine Society, 2nd Edition, Damascus.
- Badran, Abdel-Qader, 1985, "The Regret of the Ruins and the Conquest of the Imagination", investigated by Zuhair Al-Shawish, The Islamic Bureau, Beirut.
- Al-Qadi, Asaad Muhammad, 1966, The History of the Prosecution of Damascus in the Mamluk Era, Dar Al-Ummun, Beirut.
- Mahmoud, Mohamed El-Sayed, 1981, Social Movements in Islamic Societies, Dar Al-Nahda, Cairo.
- Mahmoud, Shaker, 1991, Islamic history, the Mamluk era 696-923 AH, the Islamic Office, Beirut, 2nd edition.
- Nazmi, Khalil Bey, d. T, the Ottoman conquest of Egypt, d. M.

Localized references
- Ashtour, AT, d. T, Economic and Social History of the Middle East in the Middle Ages, Dar Qutaiba, Cairo, 1st edition.
- Lapidus, Ira, 1987, Cities of the Levant in the Mamluk Era, translated by Ali Madi, Al-Ahlia Publishing House, Beirut.

Unexpressed references
- Fabri, Felix, 1975, voyage in Egypt, Paris.
- Tim, Temple, 1988, History of Damascus, London.

Research and studies
- Badr, Abd al-Khaleq, 1981, The Egyptian Society, the Late Mamluk Era, Al-Urwah Magazine, Issue 24, Fez.
- Imam, Ali Abdel-Taher, 1959, Diseases and Epidemics in Arab Societies, Culture Magazine, No. 18, Baghdad.